جامـــعة واســـط
مجلـــــــة كليـــــــة التربيـــــة

العـدد الحادي والأربعون
الجزء الأول/تشرين الثانى/٢٠٢٠

الأوبئة: من التفسير الغيبي إلى التفسير العلمي

الباحث: محمد محمد الطرمون
طالب ماجستير بمعهد الدوحة للدراسات العليا
mdtarmoune@gmail.com

الملخص

إن هذه الدراسة تنطلق من محاولة تبيان التطور التاريخي للأوبئة نحو التفسير العلمي، او بعبارة أخرى الإجابة عن اشكال نصه كالآتي: كيف تم التوصل إلى تفسير علمي للأوبئة خلال نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين؟ اما جغرافيا فقد فَرضت علينا طبيعة البحث عدم التقيد برقعة جغرافية محددة، ولكن عندما نكون مجبرين بإعطاء امثلة فلقد قمنا، وبشكل مقصود، بالتركيز على كل من العراق والمغرب.

وفي اجابتنا عن ذلك الأشكال وما يحيط به من ضوابط، قسمنا البحث إلى ثلاث نقط رئيسية؛ بينا في الأولى المقصود بالوباء والتحولات الديموغرافية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والنفسية الناتجة عنه، وكيف ان وقعها يفوق ما يحصل الان جراء وباء كرونا. تلك التحولات افرزت لنا العديد من وجهات نظر في تفسير الوباء، صنفنا في النقطة الثانية تلك النظرات إلى اتجاه يغلب عليه الطابع الغيبي، يُرجع الأمور إلى عدم رضا الله عن الانسان، ووجدنا ان هذا الاتجاه يرفض حتى محاولة الوقاية من الوباء؛ في مقابله اتجاه ثاني يقوم بكل ما يلزم للوقاية، آخذا بمبدأ الاحتراز. وفي إطار هذا الخلاف الفكري، بينا في النقطة الثالثة الطريق التي سلكها الطب ليتوصل إلى تفسير علمي للأوبئة مفاده: ان هنالك علاقة تربط بينها وبين الحيوانات، تنتقل للإنسان عبر حشرات.

الكلمات المفتاحية: الوباء، التفسير العلمي، الطب، التفسير الغيبي، النهج الوقائي.

Abstract

This study is based on an attempt to show the historical development of epidemics towards scientific interpretation, or in other words the answer to the forms of its text as follows: How was a scientific interpretation of epidemics reached during the end of the nineteenth and early twentieth centuries? As for geography, the nature of the research required us not to adhere to a specific geographical area, but when we are forced to give examples, we have - intentionally - focused on both Iraq and Morocco.

In our response to that shapes and the surrounding controls, we divided the research into three main points; In the first, we explained what is meant by the epidemic and the demographic, economic, political, social and psychological transformations resulting from it, and how their impact exceeds what is happening now as a result of the Krone pandemic. These transformations have produced many points of view for us, we have categorized them in the second point in a direction that is predominantly metaphysical, due to the lack of God's consent to man, and we found that he refuses even to try to prevent it; In exchange for him, a second direction does everything necessary for prevention, taking the principle of precaution. In the context of this intellectual dispute, we have shown, on the third point, the path that medicine used to reach a scientific explanation of the epidemics: that there is a relationship between it and animals, which is transmitted to humans through insects.

Key words: epidemic, scientific interpretation, medicine, metaphysics, preventive approach.

المقدمة

تعد الأوبئة من المواضيع الاجتماعية التي تثير الانتباه، ذلك ان هذه الأخيرة شكلت نوعاً من الرعب، بما تحمله الكلمة من معنى، للشعوب، ولو استحضرنا ان هاته الأخيرة تقتل من البشرية أكثر مما يقتل جرّاء الحروب لتفهمنا ذلك التخوف. وللإشارة فان هذه الظاهرة شملت جل مناطق العالم وتأتي بصيغة منتظمة نوعاً ما، حيث لوحظ ظهورها ما بين كل خمسين سنة على الأكثر وعشر سنوات على الأقل؛ ولكن يمكننا ان نستثني أمريكا قبل الاكتشافات الجغرافية، ذلك ان هذا الجزء من العالم ظل حبيس خصوصيته الطبيعية التي كانت تغيب عنها الأوبئة.

وان كانت أمريكا قد شهدت ذلك في فترة زمنية قبل القرن الخامس عشر فإنها بعد ذلك أصبحت مثل بقع العالم، أي مثل اسيا وافريقيا وأوروبا. ومن خلال هذا الوضع المتسم بالشمولية والعمومية لظاهرة الأوبئة على سطح الكرة الأرضية منذ ذلك التاريخ، كانت مآسي العالم شبه واحدة، وبموازاة مع تلك المآسي كانت النظرة إلى الأوبئة تتأثر بتطور العلوم الطبية، والتي افرزت لنا في النهاية تفسيرا علميا لذلك اللغز الذي لطاما تضاربت حوله اراء فئات اجتماعية؛ ونحن هنا اذ نحاول تقديم معلومات فيما يخص توصل الانسان إلى ذلك التفسير العلمي، كنا ملزمين بتقديم النظرات او التفسيرات التي كانت تحاول فهم الظاهرة قبل ظهور ذلك التفسير، وهذا لا يعني مطلقا التطرق إلى كل التصورات ، أي لن نتطرق إلى ما كان يوجد في جنوب شرق اسيا او أمريكا او افريقيا غير المسلمة. وبالتالي فان الموضوع سيركز على حوض البحر الأبيض المتوسط، خصوصا نظرة المسلمين والنصارى واليهود للوباء خلال فترة القرن التاسع عشر.

ونحن اذ نقدم هذه الورقة نشير إلى ان الأوبئة كُتب حولها العديد من الكتب التقليدية المطبوعة منها: اقوال المطاعين في الطعن والطواعين للعربي المشرف، وكتاب بذل الماعون في فضل الطاعون لابن حجر العسقلاني؛ ثم هنالك كتب تقليدية ما تزال مخطوطة منها: جواب في احكام الطاعون لابن مبارك احمد اللمطي، ومخطوط الامراض الوبائية لابن هيدور التاذلي. كما كتبت دراسات تاريخية حديثة في هذا الصدد جاءت مع مدرسة الحوليات، فكان من تلك الدراسات ما دونه فيرنارد بروديل في موسوعته "الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية"؛ وان تناول بروديل الموضوع بشكل جانبي فان شالدون في التاريخ والأوبئة والقوة الامبريالية، وكذلك بعض المؤرخين العرب مثل: محمد امين البزاز بكتابه الموسوم تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وكذلك كتاب الطاعون وبدع الطاعون الحراك الاجتماعي في بلاد المغرب بين الفقيه والطبيب والأمير ١٣٥٠.١٨٠٠ لحسين بوجرة.

رغم كل ما كُتب حول الموضوع وما له من فائدة، فيبقى تركيزنا على كيفية ظهور التفسير العلمي للأوبئة، وتجاوز منطقة محددة، أي التركيز على حوض البحر الأبيض المتوسط خلال القرن التاسع عشر، يجعل البحث الأول من نوعه. وتأتي هذه المقارنة لتؤكد على كون الذهنية الإسلامية متشابهة بين المشرق والمغرب من خلال نموذج العراق والمغرب، ومن جهة أخرى لتراعي أسباب ذلك التطور الطبي الأوروبي المتسارع في مقابل التطور الطبي البطيء الحاصل في العالم الإسلامي.

بناء على ذلك سننطلق في هذه الورقة البحثية من اشكال رئيس يكون كالتالي: كيف تم اكتشاف منشأ امراض الأوبئة؟

لكن انبثقت عن هذا الاشكال العديد من الأسئلة الجزئية من قبيل: ما هو الوباء؟ وما هي أبرزها في القرن ١٩؟ وماهي الاثار التي خلفتها؟ وكيف كان يتم التعامل مع الوباء خلال تلك الفترة؟ هل كانت نظرة واحدة ام هنالك خلاف اجتماعي؟

المحور الأول: مفهوم الوباء وبعض التحولات الناتجة عنه.

أ . مفهوم الوباء وانوعه:

يُعرف الوباء في الثقافة الغربية الاغريقية منها باسم Loimos او Loimia، وفي اللاتينية بـ PESTIS، وهما يدلان على الامراض البشرية الكبرى الخطيرة. (١)

اما في الثقافة العربية، فعندما يتحدث ابن منظور عن مفهوم الوباء يقول بانه "مرض عام ...ويقال ارض وبيئة ...كثيرة الوباء" (٢)، لكنه اثناء شرحه يقدم لنا مفردة الطاعون (٣)على أساس كونها مرادفة له؛ ومن خلال ذلك نعتقد بان الوباء والطاعون مسمى لظاهرة واحدة في الثقافة العربية.

رغم ذلك نقول بان الدارسين جعلوا الطاعون كنوع من العديد من الأوبئة التي عصفت بالبشرية مثل: الكوليرا والجدري والتيفوس ثم الإيبولا وكورونا وغيرهم، ثم تتفرع عن كل نوع أنواع اخرى؛ فلو اخذنا على سبيل المثال الطاعون فنجده يقسم إلى الطاعون الرئوي (٤) وطاعون الخراريج (٤) كما ذهب إلى ذلك بروديل (٥) ومع المدة سيظهر صنف ثالث يدعى بالطاعون التسمُّمي (٤).

وعموما تعرِّف منظمة الصحة العالمية الوباء بكونه ذلك المرض الذي ينتشر بسرعة بين الناس والدول، ولا علاقة لخطورة المرض بذلك. (٦) ومن خلال كل تلك المفاهيم يمكن القول انها لا تعبر عن تناقض في المفهوم وانما هو نتيجة لتطوره التاريخي او ما يصطلح عليه بدينامية المفهوم، وهذا نتاج للتطور العلمي الطبي الذي يحدد اعراض كل مرض بدقة فتظهر بذلك التصنيفات. وبغض النظر عن اعراض الأوبئة وما يصاحبها من تأثير عن البنية الجسدية وما تقاصيه خلال فترة احتضان الوباء، نتساءل: عما هي التحولات التي تخلفها في الأوساط الاجتماعية؟

ب . بعض التحولات الناتجة عن الوباء:

ترجع ظاهرة الأوبئة إلى عصور ما قبل التاريخ. وقد شهدت الإنسانية اوبئة كثيرة عبر تاريخها الطويل خلفت تحولات مست مجالات عدة منها: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والنفسية ناهيك عن الديموغرافيا؛ ويعتبر الطاعون الأسود الذي حدث ما بين سنتي ١٣٤٨ . ١٣٥١م من أبرزها.(7)

لكن تماشيا مع الموضوع المحدد زمنيا في القرن التاسع عشر، وبالتركيز على العالم العربي الإسلامي، شهد المغرب اوبئة عدة منها: الكوليرا سنة ١٨١٨ التي انتقلت من الهند عبر الحجاج إلى مكة، ثم بالمقابل نُقلت من طرف الحجاج المغاربة إلى المغرب، (٨) هذا الوباء الذي خلف خسائر بشرية كبيرة كانت بدايته من مدينة طنجة حيث زحف على سكان المدينة عبر مراحل تراوحت تدريجيا من قلة الوفيات إلى كثرتها، والتي وصلت في مجملها إلى قبض ارواح خمس سكان المدينة، أي ما يعادل تقريبا ما بين ٩٠٠٠ و١١٠٠٠. (٨) ومن طنجة انتقل الداء إلى المناطق المغربية الأخرى، اذ يورد الناصري انه "شاع الوباء وكثر في بلاد المغرب.. ثم زاد وتفاحش حتى أصاب القوم منهم امر عظيم" (٩) لم يكن التأثير على المغرب فقط بل ان الجزائر هي الأخرى شهدت حوالي ١٥٠٠٠ قتيل من هذا الوباء. (٨)

ومثل المغرب والجزائر، عرف العراق العديد من الأوبئة خلال القرن التاسع عشر، كان معظمها يأتي من الخارج، وان خلف طاعون سنة ١٨٠٢م وكذلك وباء الكوليرا سنة ١٨٢٠ العديد من القتلى تصل في بعض الأحيان إلى إبادة أسر بكاملها، فان ذلك يبقى قليلا بالمقارنة مع طاعون ١٨٣١ الذي يصفه الدكتور علي الوردي بانه "اعظم طاعون ضرب العراق عبر تاريخه" اذ انه وصل في اعلى معدل له ـ حسب غروفز ـ إلى قتل حوالي تسعة الاف شخص في اليوم. (١٠) وهذا يشير إلى ان ما خلفته تلك الأوبئة اكثر مأساوية مما يخلفه وباء كورونا اليوم، اذ حسب إحصائية قامت بها جامعة جون هوبكنز تشير إلى أن ٢١٠٨ شخص في أربع والعشرين ساعة قد فارقوا الحياة يوم ١١ ابريل ٢٠٢٠ جراء وباء كورونا. (١١)

وزيادة على النقص الديموغرافي الحاد الذي خلفته اوبئة القرن التاسع عشر، ينتج عن الأوبئة تحولات كثيرة، اقتصادية واجتماعية وسياسية ونفسية. ففي الحياة الاقتصادية نجد تأثُّر المستوى الحرفي والتجاري والفلاحي، فحرفيا يقلّل الوباء من اعداد الصناع مثل الوراقين والمزخرفين؛ وتجاريا يحدث انكماش في المعاملات لقِلَّة السلع وقلة من يشتريها او ينقلها، كما ان الوباء يُشغِل الناس عن هذه الأمور (٨)؛ واما في المستوى الفلاحي فيشكل تناقص اعداد السكان جراء الوباء او الهجرة هربا من الموت إلى قلة المساحة المزروعة رغم توفر الظروف الملائمة بعد انقضاء أثره، (٨) وفي بعض

المناطق كتونس ـ كما ذهب إلى عبد الحميد هنية في احدى محاضراته ـ اثرت الأوبئة في مسالة الوقف، حيث تُركت الأراضي بدون راع لها.

بل ان الوباء في الدولة العثمانية كان يفرض على السلاطين إعادة إحصاء الأراضي نتيجة الوفيات وهو ما سمي بقانون الطابو. (١٢) كما اننا نجد إشارات في العديد من المناطق على اقبال السكان على شراء معدات التحنيط والكفن مثلما حدث في بغداد خلال طاعون ١٨٣١م؛ وقد كان يصاحب ذلك ارتفاع في أسعار تلك المواد إلى درجة ان بعضها يصل إلى اكثر من أربعة اضعاف، دون ان ننسى الزيادة في الاقبال على المياه التي تستعمل في تغسيل الموتى، فكان العاملون يدرون بذلك أموالا من خلال المياه او مواد التحنيط. (١٣). طبعا إذا حاولنا ان ننظر إلى التحولات الاقتصادية اليوم جراء وباء كورونا فنجد بان هنالك أرباح فعلية في صناعة الكمامات، لكن بالمقابل هنالك خسائر في أسواق النفط وأسواق المال. (١٤) وهذا الوضع اليوم في نظرنا لا يختلف كثيرا مع ما أشرنا اليه.

لم يكن التأثير حبيس الحياة الاقتصادية اذ شمل الوضع الاجتماعي ايضا، وهو ما تجسد في انتقال بعض الافراد من الفقر إلى الغنى جراء إعمار بعض الأراضي التي هلك أصحابها او هجروها جراء الوباء، (١٥) كما ساهمت الأوبئة في تقليل الفوارق الاجتماعية بسبب حصول جل الأشخاص على الأراضي، وهذا كان يطرح كذلك مسالة التبعية بين الغني والفقير، حيث ان الأغنياء اعتمدوا على أنفسهم في حرث الأراضي لقلة الفقراء. (٨) بل كانت تظهر اعمال اللصوصية؛ والأطفال الايتام الذين مات اباؤهم. (١٣) وان كانت أوروبا تقوم بالحجر الصحي خلال تلك الفترة، فان ذلك لم يمنع من ظهور مشاكل تنتج عن تلك التدابير الوقائية، فالحجر الصحي الذي طبقه ال هامبرسبورغ مثلا، شكل صعوبات للشعب البلقاني للتواصل مع اسرهم التي كانت تمتد بين الحدود. (١٦)

ولدينا إشارات على ان الوباء غيَّر في الجانب السياسي بالمغرب، بحيث انه حقق نوعا من استقرار السلطة التي لم تستطع الدولة تحقيقها بالقوة، وهنا نتحدث بالأساس عن الاضطرابات والتمردات التي كانت تقوم بها العديد من القبائل، بل انه جراء هذا الاستقرار اعتبره البعض خير حليف للسلطان. (٨) ولكن رغم ما يقدَّمه ـ حسب الدارسين ـ من استقرار فلقد خلف نقصا في الاداريين والعسكريين مما ينعكس على بنية الدولة من حيث النخب. (٨) ولكن من جهة أخرى نجد بان الأوبئة تجبر بعد النخب على التوقف عن أداء وظائفهم مثلما قام به وزير بغداد عند انتشار طاعون ١٨٠٢م، حيث هاجر المدينة نحو مدينة الخالص لتفادي الإصابة بالطاعون؛ (١٣) وهو ما يؤثر على البنية الأمنية

للمدن، اذ كانت تظهر اعمال مثل السرقة وهو ما وجدناه حاضرا خلال طاعون ١٨٣١ ببغداد. (١٣).

لقد نتجت عن الأوبئة ظواهر نفسية كثيرة تتمثل أساسا في الخوف من الموت، اذ ان الكثير من الناس قاموا بشراء الاكفان لأنفسهم استعداد للموت، بل ان البعض كان يغسِّل ويكفن نفسه ويستلقي في وضعية الموت مستقبلا القبلة. كما كانت شدة التوترات النفسية تؤدي إلى دفن الأقارب دون ابداء مشاعر تأثر بموتهم. (١٣) ونظرا لوَقْعِ بعض الأوبئة في نفوس الناس كان يدفعهم إلى تسمية أماكن بعبارات تذكر بها مثل "السوق الجائف" ببغداد نسبة إلى راحة الجثث النتنة التي جمعت هناك. (١٣)

من خلال ما سبق يتضح بان التحولات التي خلفتها الأوبئة تشمل كل الميادين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والنفسية والديموغرافية، أي بعبارة أوضح تجعل العالم ينقلب رأسا على عقب، ولكن نتساءل هنا عن نظرة المجتمعات للوباء، بسؤال أوضح: كيف كان يتم التعامل مع الوباء؟ هل كانت هناك نظرة موحدة؟ ام هنالك خلاف في المجتمع؟

المحور الثاني: النظرة الغيبية والنظرة الوقائية للوباء.

ان حادثة كبرى مثل الوباء من المسلمات ان يكثر كلام العلماء والسياسيين حولها ـ وهو ما يتضح اليوم مع وباء كرونا ـ ولكن بتفحصنا لتلك الآراء، ونقصد هنا القرن التاسع عشر، يتبين انها كانت متضاربة عموما، ويمكن تقسيم تلك الآراء إلى اتجاهين متناقضين، أولهما يرفض الوقاية، ويعتبرها اعتراضا على قدر الله؛ والثاني يؤكدها. وفي معالجتنا لهذه النقطة سنقتصر على منطقتين جغرافيتين هما: المغرب والعراق.

أ ـ النظرة الغيبية

ان هذا الاتجاه ذو نظرة متشددة يرفض الاحتراز والوقاية من الطاعون رفضا تاما، ويمثل هذا الاتجاه العديد من العلماء- إضافة رجال السياسة (١٧) ــ منهم بالمغرب الزياني والناصري والمشرفي فأما الزياني فينظر إلى الكرنتينة (الحجر الصحية) على انها غير متوافقة مع العرف والشرع، وبالتالي فهي بدعة يحاول من خلالها الأشخاص التظاهر بحسن النية بالخير والإحسان وفي باطنهم سعي إلى الإضرار بخلق الله، ثم نعتهم بالجهل العظيم، بل الابعد من هذا يعتبر الدعاء لرفع الوباء حراما، لأنه يعتبر ردا على القدر. (١٨)

اما الناصري فقام بعرض الآراء حول مسالة الكرنتينة في شخص العالمين ابي محمد المالكي التونسي وابي محمد البيرم، ولما تبين له اختلاف بينهما، فالأول يقول بحرمتها والثاني بإباحتها، اجتهد

الناصري مستندا إلى الفقه، فقارن المسالة بالمصلحة والمفسدة، فتوصل إلى ان الحجر الصحية من حيث المصلحة لا تبعد الطاعون؛ ومن حيث المفسد فهي دنيوية كالإضرار بالتجار والمسافرين، ودينية تشوش على عقائد عوام المؤمنين، ومن خلال ذلك حكم بحرمتها. (١٩)

في نفس الاتجاه واقل منه حدة، يذهب المشرفي في مخطوطه" اقوال المُطاعين في الطعن والطواعين" إلى ان فاجعة الطاعون لم تظهر الا عند مجاورة الكفار للمسلمين، وان كان يتعارض مع الحجر الصحي ويتمشى مع الزياني، فانه لا يتوافق معه في مسالة تحريم الدعاء بشكل فردي، الشيء الذي كان فيما مضى يحرمه السيوطي سوآء بشكل فردي او جماعي في رسالته المعروفة بـ: "رسالة في الطاعون". (٢٠)

توجد لدينا معلومات حول ان رجال الدين الاسلامي في العراق خلال طاعون ١٨٣١م رفضوا التدابير الصحية التي حاول القيام بها داود باشا عن طريق الهيئة الطبية القنصلية البريطانية، وكان مبررهم مخالفة الحجر الصحي للشريعة الإسلامية، هذا فتح الباب امام دخول القوافل الاتية من المناطق الموبوءة. (١٣)ولم يكن هذا التمثُّل عند الكثير من رجال الدين بل حتى بعض النخب السياسية مثل اب سليمان فائق الذي رفض الخروج من المدينة بعد انتشار الطاعون اعتقادا منه ان ذلك يعتبر عصيان لله. (١٣)

ب . النظرة الوقائية

ظهرت في العالم الأوروبي خلال القرن الثالث عشر الحاجة إلى الوقاية من الوباء عن طريق القيام بمحاجر صحية تسمى بـ "الكرنتينة"، وتعتبر ـ كما أشار عبد الرحيم بنحادة ـ من بين أبرز الاختلافات بين العالم الإسلامي والاوروبي، حيث انه في ذلك الوقت الذي برزت فيه الوقاية من الوباء، كان العالم الإسلامي يحرِّم محاولة الوقاية او الهروب منه اعتقادا منهم بانه قدر إلهي؛ (٢١) ورغم ذلك لا ننفي ان الفكرة كانت حاضرة في العالم الإسلامي في نفس الفترة، اذ ان ابن الخطيب في مقنعة السائل يدعوا للوقاية من الوباء خلال بداية القرن الربع عشر. (٢٢)

صحيح ان المسحيين واليهود كان لديهم حرص على الوقاية، وذلك لم يكن مقتصرا على القاطنين منهم بأوروبا، بل حتى القاطنين في المدن الإسلامية، سواء اكانوا ممثلين دبلوماسيين او ترعرعوا في المجتمع الإسلامي؛ وهذا الحرص وجدناه عند انتشار وباء الطاعون ببغداد سواء سنة ١٨٠٢ او سنة ١٨٣١، حيث جلسوا في بيوتهم إلى ان انتهى الطاعون على عكس غالبية المسلمين. (١٣) ولكن هذا لا ينفي وجود مسلمين من رجال السياسة والعلم دافعوا عن الوقاية من الوباء والدعوة إلى التطبيب، إلى درجة ان منهم من حرر كتبا دفاعا عن ذلك.

في هذا الاتجاه نجد في العراق داوود باشا والي بغداد، حيث دافع عن الوقاية من الوباء باستعمال الحجر الصحية؛ وعلى هذا النهج سار سليمان فائق، اذ لم يتوان في ترك المدينة بعد انتشار الطاعون والعمل بكل الإجراءات الاحترازية، معتبرا تفسيرات رجال الدين خاطئة، ولعل هذا ما جعله ينجوا ومن رافقه من اشد طاعون ضرب العراق. (١٣)

تماشيا مع تلك النظرة بالعراق؛ نجد بان المغرب هو الاخر قد نما في الاتجاه الذي يدافع عن الوقاية من الأوبئة، والغريب في الامر هنا انهم ينطلقون من الاجتهاد بالاستناد على النصوص القرآنية والأحاديث ـ مثلما قام به الاتجاه الرافض للاحتراز؛ ومن بين من مثل هذا الاتجاه نجد محمد بن ابي قاسم الفيلالي (توفي في وباء ١٨١٨م)، الذي يَعتبر ان القيام بالمسائل الوقائية اتجاه الوباء كالحجر الصحية لا يعتبر خروج عن الدين، بل انه اشبه ما يكون بالتداوي، لأنه يعتبر من أمور التوكل على الله، وليس الاعتراض الاقدار الإلهية كما ذهب أصحاب النظرة الغيبية. (١٩)

تعززت هذه النظرة مع محمد بن يحيى اليوسي، بحيث انه اقر بضرورة اتخاذ التدابير الوقائية عند ظهور الوباء كترك الاجتماعات المعتادة والعزلة والانفراد والابتعاد عن المريض، ودعوته الناس إلى التماس العلاج من الطبيب في حالة المرض، كما يقدم بعض أساليب العلاج ـ طبعا التقليدية ـ المتمثلة في نظافة مكان المريض وإزالة الجزء الذي ظهر فيه اثار الطاعون واستعمال بعض الأعشاب دون اغفال الدعاء والصدقة. (٨)

ختاما لهذا المحور نقول: بان الازدواجية في النظرة إلى الأوبئة بين رفض الاحتراز وضرورة الوقاية لم تكن سجال منطقة العراق والمغرب بالعالم الإسلامي فقط، بل يمكن اعتبارها واقعا شاملا لكل اطرافه، وهنا نذكر على سبيل المثال تونس، والتي يؤكد فيها بوجرة انها شهدت نفس الوضع، وان كانت الغالبية للاتجاه الطبي على حساب اتجاه الغيبي. (١٨) ثم ان مصر هي قامت ببناء حجر صحي للحد من انتشار كوليرا ١٨١٨ (٢٣) وتشجيع الطب العصري على حساب الطب التقليدي في عهد محمد علي.

كما تقدم ذكره، هنالك المزاوجة في النظرة إلى الأوبئة بين الغيبي والاحترازي داخل فئة العلماء المسلمين والنخبة السياسية آنذاك، وهو ما يدحض بعض اراء الكتاب الاوربيين الذين ادعو ان العالم الاسلامي غارق في ذهنية تقليدية غيبية محضة، عكس العالم الأوروبي. ومهما يكن من اهداف وراء ذلك الادعاء من بعض الأوروبيين؛ فان نرجع إلى الموضوع لنقول: إن النظرة الوقائية لم تكن تدرك حقيقة منشأ الأوبئة سواء في العالم الإسلامي او الغربي، أي انها تقوم فقط بالاحتراز والحذر دون

معرفة بمن وراء ذلك المرض، الشيء الذي يجعلنا نتساءل عن الطريقة التي استطاع بها الانسان التوصل إلى تفسير علمي للوباء؟

المحور الثالث: التفسير العلمي للوباء.

قبل الإجابة عن ذلك الاشكال المتعلق بظهور التفسير العلمي للأوبئة اود الإشارة إلى ان هنالك العديد من الأسباب التي حالت دون الوصول إلى تلك المعرفة العلمية بشكل مبكر، ولعل ذلك ينطلق أساسا من الصراع الذي كان يطبع أي محاولة تريد التفسير خارج تعاليم الدين الإسلامي، هاته النظرة التي وضحناها في ثنايا الفصل الثاني؛ ونحن هنا في غنا عن إعادة ذلك، لكن بالمقابل اود التنبيه إلى وجود أسباب أخرى ساعدت في ذلك، لكن هذه المرة مرتبطة بالعالم الأوروبي نفسه، وهي من جهة تتقاطع مع ما قلناه عن رجال الدين الإسلامي، أي بعبارة أوضح كانت هنالك نظرة دينية مسيحية ـ يهودية ترفض التفسير العلمي، هذا بالإضافة إلى تنامي بعض النظريات الفلسفية التي تذهب في نفس السياق التقليدي (١٦).

من البديهي القول بان أوروبا ظهر فيها الزحف نحو التفسير العلمي للوباء بشكل كبير في أوساط رجال الدين قبل العالم الإسلامي. لكن هذا لا يمنع من ظهور احداث الشك في أوساط العامة من ذلك التطور العلمي الطبي بأوروبا، اذ كان بين الفينة والأخرى يسود اعتقاد بان الأطباء يقتلون المرضى لتلبية حاجات التشريح، وهذا كان ينتج عنه الاحتجاج والصراع بين العامة والأطباء مثلما حدث اثناء وباء الكوليرا سنة ١٨٣٢م، (٢٤) مما يؤثر سلبا على التقدم العلمي الوبائي.

صحيح ان لمثل تلك العوامل تأثيرات سلبية في تبطيئ المعرفة الوبائية، لكنها لم تمنع من ظهورها. حيث كانت وراء ذلك أسباب موضوعية ارتأينا تقسيمها إلى صنفين: غير مباشرة ومباشرة؛ ونعتقد بان الأسباب غير المباشرة تمثلت في نجاح الحجر الصحية والتقنيات الوقائية الأخرى في ارغام الوباء على التراجع ـ مثلما بينا في المحور الثاني؛ (١٦) ثم ظهور نظرية الجراثيم في القرن السابع عشر التي تمزج الشك بالملاحظة التجريبية. (١٦)

من الصعوبة جدا تحديد السبب المباشر لظهور التفسير العلمي للوباء، لكن من خلال تفاعلنا مع الموضوع، ارتأينا بانه يرتبط أساسا بانتصار الطب التشريحي، هذا الحدث الذي وقع في القرن الثامن عشر بأوروبا، وفي القرن التاسع عشر ببعض الدول الإسلامية كمصر وتركيا وإيران؛ وان كانت جذوره تعود إلى ما قبل ذلك، حيث ان باينم يشير إلى ان اول محاولة للتشريح علنية تعود إلى سنة ١٣١٥م في بولونيا (٢٥)؛ مهما يكن من اختلاف حول قدم علم التشريح، فان الأساس لدينا هو

التحولات العلمية التي صاحبته في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، والتي تمثلت في دحض التكهنات السابقة الخاطئة حول الامراض عامة، وهذا ما نبه إليه الطبيب كزافييه عندما قال انه: "إذا شرحت بعض الجثث تتلاشى نظريات القدامى المهلهلة". (٢٥)

من زاوية الطب التشريحي ظهرت اكتشافات مهمة للطبيب روبرت كوخ عندما توصل بجهاز الميكروسكوب لميكروب الأنثراكس، (١٦) وهو مرض يصيب الابقار والخيول ينتقل للإنسان (١٦)؛ ليعود كوخ من جديد سنة ١٨٨٢م ليفك لغز مرض السل عندما توصل إلى ان عصية الدرن هي السبب في ذلك (٢٥).

تلك التحولات في التفكير الطبي بالاتجاه نحو تشريح واكتشاف الجزيئات الدقيقة المسببة لبعض الامراض، أدت بشكل حتمي إلى معرفة بعض امراض الأوبئة؛ اذ بعد سنة من اكتشاف كوخ للسُّل سيتوصل هو نفسه إلى الكائن العضوي الصغير، يدعى الفيبريو، الذي يسبب الكوليرا بينما كان بالإسكندرية. (١٦)

اما وباء الطاعون، فلم يتم اكتشافه الا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين من قبل الياباني شيبا سابورو والسويسري ألكسندر يرش عندما تزامن وجودهما بهونج كونج بوباء طاعون سنة ١٨٩٤م، حيث وجدوا ان العصويات الموجودة في الفئران الميتة هي نفسها الموجودة بالإنسان الميت دون معرفة الرابط بينهما؛ ذلك ما توصل إليه العالم الفرنسي لويس باستير بعد سنتين وهو متواجد بمومباي بقوله ان برغوثة الفار هي الرابط بينهما، أي بين الفار المريض والانسان. (١٦) (٥)

الخاتمة

انطلقنا في هذه الورقة البحثية من اشكال رئيس هو: كيف تم اكتشاف منشأ امراض الأوبئة ؟ ولكن طرحنا العديد من الأسئلة الجزئية من قبيل: ما هو الوباء؟ وما هي أبرزها في القرن ١٩؟ وما هي الاثار التي خلفتها؟ وكيف كان يتم التعامل مع الوباء خلال تلك الفترة؟ هل كانت نظرة واحدة ام هنالك خلاف اجتماعي حولها؟

لقد جعلنا من تلك الأسئلة موجها لنا في هذه الدراسة، حاولنا الإجابة عنها قدر الإمكان، ومن باب الانصاف القول بان الموضوع بصفة عامة ما يزال يحتاج إلى دراسة تكون أكثر عمقا، ولكن ذلك لا يمنع من ان نشير إلى بعض النتائج التي خلصنا اليها من خلال تفاعلنا مع الموضوع من قبيل:

على ان التفكير الغيبي كان حاضرا بقوة في الوسط الإسلامي بما فيهم رجال الدين والسياسة، عكس اليهود والنصارى، وذلك لم يمنع من وجود عدد قليل من المسلمين رفضوا الطرح الغيبي وتبنوا الطرح الوقائي، وكذلك وجود عدد من اليهود والنصارى تبنوا الطرح الغيبي.

ان التوصل إلى تفسير علمي للوباء جاء نتيجة صراع اجتماعي طويل بين التفكير الغيبي والتفكير الوقائي العلمي منذ القرن الثالث عشر إلى أواخر القرن التاسع عشر، وان ذلك لم يظهر لِلْوجود إلا لتظافر جهود علماء من مناطق مختلفة من العالم.

ختاما نقول: بانه بالرغم من الوصول لتفسير علمي للأوبئة فانه لم يمنع من استمرار التفسير الغيبي والخرافي وسط بعض الشرائح الاجتماعية منهم بعض رجال الدين، واقصد بهم علماء الدين او بالأحرى ينتسبون اليه؛ وبغض النظر عن التأثيرات السلبية لتلك الفئة في السير العام عند ظهور اوبئة في القرن العشرين والحادي والعشرين، نتساءل باستغراب عن التفسير العلمي نفسه، هل فعلا قرن ونيف من اكتشاف مسببات العديد من الأوبئة، وكذا التطور العلمي الطبي الوبائي منذ تلك الفترة، غير قادر على التوصل لحقيقة منشأ وباء كرونا ودواء يخضعها؟ ام اننا تجاوزنا التفسير العلمي الهادف لإنقاذ البشرية، إلى مرحلة يُبحث فيها عن الأوبئة لتهديد وجودها تحقيق لمطامح ما؟!

المراجع

١. *مفهوم الوباء عند الاخباريين المغاربة غي القرن التاسع عشر*. الفرقان الحسين. الجديدة : الجمعية المغربية للبحث التاريخي، (٢٠٠٢). الأيام الوطنية العاشرة: المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب.

٢. ابن منظور، (بدون تاريخ). لسان العرب. بيروت: دار صادر، المجلد ١. ١٨٩

٣. —. (بدون تاريخ). لسان العرب. القاهرة: دار المعارف، المجلد ٦. ٢٦٧٧

٤. البزاز محمد امين، (١٩٨٩). الطاعون. معلمة المغرب. سلا: مطابع سلا، ٥٦٧٩

٥. بروديل فيرناند، (٢٠١٣). الحضارة المادية والاقتصادية والرأسمالية من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر. [المترجمون] مصطفى ماهر. القاهرة: المركز القومي للترجمة. المجلد ١. ٩٣

٦. ماذا يعني إعلان منظمة الصحة كورونا "وباء عالميا"؟ سكاي نيوز عربية. [متصل] ٢٢ ٠٤، ٢٠٢٠. https://cutt.us/RnaLJ.

٧. Sh. Watts، (١٩٩٩). epidemics and history disease power and imperialism. ١.London: yale university press new haven.

٨. البزاز، محمد امين، (١٩٩٢). تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية. ١٠٦ ـ٤٠٢.

٩. الناصري احمد. (٢٠١٠). الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. بيروت: دار الكتاب العالمية، المجلد ٩. ١٨٣ ـ ٢٣٥

١٠. الوردي علي. (الصفحة الخاصة بدار النشر مبتورة). دراسة في طبيعة المجتمع العراقي. ٣٠٣

١١. فيروس كورونا: عدد الوفيات في الولايات المتحدة يتجاوز ٢٠٠٠ في يوم واحد . *بيبسي عربي*. [متصل] ٢٠ ٠٤، ٢٠٢٠. https://2u.pw/PNTmv .

١٢. بنحادة عبد الرحيم. (٢٠٠٨). العثمانيون المؤسسات والاقتصاد والثقافة. الدار البيضاء: النجاح الجديدة، ٩٥

١٣. الوردي علي. (بدون تاريخ). لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. إيران: انتشارات الشريف الرضي. المجلد ١. ١٨٩ ـ ٢٧٥

١٤. صلاح علي. عولمة الأوبئة انعكاسات فيروس "كورونا على الاقتصاد العالمي. المستقبل للدراسات والأبحاث المتقدمة، ١٥ ٠٤، ٢٠٢٠. https://cutt.us/fIFYB .

١٥. البزاز محمد امين. (١٩٨٣). الاصلاح والمشكل الصحي في مغرب القرن التاسع عشر. الرباط: جامعة محمد الخامس كلية الآداب، ندوة الاصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر. ٢٣٥.

١٦. واتس شلدون. (٢٠١٠). الأوبئة والتاريخ: المرض والقوة الامبريالية. [المترجمون] احمد محمود عبد الجواد. القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٥٦ ـ ١٠٥.

١٧. نهليل محمد. (٢٠١٣). رسائل شريفة. [المترجمون] اعداد وتقديم الجيلالي العدناني وعبد الرحيم بنحادة. الرباط: مطبعة ابي رقراق للطباعة والنشر،٩٢

١٨. بوجرة حسين. (٢٠١١). الطاعون وبدع الطاعون الحراك الاجتماعي في بلاد المغرب بين الفقيه والطبيب والأمير ١٣٥٠.١٨٠٠. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢١٥ ـ ٢٥٠

١٩. المنصور محمد. (٢٠١١). موقف علماء المغرب من الأوبئة والإجراءات الصحية الاحترازية. [مؤلف الكتاب] اسية بنعدادة. المعرفة الطبية وتاريخ الامراض في المغرب. الرباط: منشورات عكاظ، ١٠٥ ـ ١٠٧

٢٠. السيوطي جلال الدين. مخطوط رسالة في الطاعون. مكان غير معروف: مكتبة الملك عبد الله بن عبد العزيز. ٤

٢١. أفندي محمد. (٢٠١٧). جنة الكفار: سفارتنامه محمد أفندي إلى باريس سنة ١٧٢١م. [المحرر] وتحقيق عبد الرحيم بنحادة. الرباط: دار ابي رقراق للطباعة والنشر، ٣٩ ـ ٤٠.

٢٢. ابن الخطيب السليماني الغرناطي. (٢٠١٥). *مقنعة السائل عن المرض الهائل*. [المترجمون] تحقيق وتقدم حياة قارة. الرباط : دار الأمان. ص٦٦

٢٣. فهمي خالد. (٢٠١٦). الجسد والحداثة: الطب والقانون في مصر الحديثة. [المترجمون] شريف يونس. القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٣٧.

٢٤. ال لفرقان حسين. (٢٠١٤). ادبيات الأوبئة في مغرب القرن ١٩: نموذج اقوال المطاعين في الطعن والطواعين للعربي المشرفي. الرباط: دار التوحيدي، ١٥٣.

٢٥. باينم ويليام. (٢٠١٦). تاريخ الطب: مقدمة قصيرة جدا. [المترجمون] لبنى عماد تريكي. القاهرة: هنداوي للتعليم والثقافة، ٤٠ ـ ٦٩.

٢٦. الكركوكلي رسول، (بدون تاريخ). دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء. [المترجمون] موسى كاظم نورسن. بيروت: دار الكتاب العربي. ٢١٦.